إعادة كتابة التاريخ ضرورة أم سفه؟!

يلحظ المراقب جدلا غير محسوم بين المؤرخين العرب والمسلمين عما إن كان تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده يحتاج إلى "إعادة كتابة" أم لا .. حتى بلغ الحماس بأحد زعماء " الإخوان" هو الدكتور محمد قطب؛ حدا جعله يدعو إلى كتابة التاريخ البشري كله مجددا "من زاوية النظرة الاسلامية التي تقيس الإنجاز البشري بالمعيار الرباني" على حد تعبيره.

وإذ يذهب الإسلاميون إلى هذا التوجه في المطالبة بإعادة كتابة التاريخ ينحى القوميون والعروبيون إلى مقصد آخر، فهم يعتقدون أن " تجاهل الحضارات قبل الإسلامية أثّر سلباً وشوه كذلك الرؤية الواقعية للحضارة العربية والإسلامية".

ودفع ذلك موقع "العراق للجميع" على الشبكة الالكترونية إلى اتهام جميع المؤرخين العرب والأجانب بالاتفاق على القطع التعسفي للأصول الوطنية العريقة للحضارة العربية والإسلامية عما تلاها "فهم ـ كما يقول الموقع ـ يوهمون القارئ أن الجذور الأولى لحضارة العرب لا تتعدى أصول البداوة وشعر المعلقات وسجع الكهان، وما

سوى ذلك جعلوه أجنبيا، فالفنون فارسية، والتصوف هندي، والفلسفة إغريقية "!!

وطرف ثالث معاصر يضع الدعوتين في سلة واحدة ويرى أنها "ضرب من السفاهة" كما هو اعتقاد المؤرخ السوداني الدكتور عزالدين عمر موسى من جامعة الملك سعود في السعودية.

وإذا ما عدنا إلى ما علل به كل طرف رأيه الذي ناصره نجد الدكتور محمد قطب في كتابه (كيف نكتب التاريخ الاسلامي) يعدد ملاحظات تجعله يلح على ضرورة إعادة كتابة التاريخ الاسلامي.

ويقول: "إذا نظرنا إلى المصادر الإسلامية القديمة، نجد فيها ذخيرة ضخمة من الأخبار والوقائع والروايات، تصلح زاداً للمتعمق، ولكنها - بصورتها الراهنة - لا تصلح للقارئ المتعجل الذي يريد خلاصة جاهزة ممحصة، سهلة الاستيعاب والهضم، وإذا نظرنا، من ناحية أخرى، إلى معظم المراجع الحديثة المتأثرة بالمنهج الاستشراقي، نجدها مكتوبة بصورة جذابة مغرية بالقراءة من ناحية الشكل، ولكن عيبها من الناحية المنهجية أن أغلبها بعيد عن الأمانة العلمية الواجبة، ملون تلويناً لتحقيق هدف معين، تكنّه صدور لا تحب الخير لهذا الدين".

وسواء أكانت تلك المراجع في نظر قطب من تأليف المستشرقين مباشرة، أو من تأليف تلاميذهم، فإن "هذا العيب المنهجي الخطير يجعل مراجعهم غير صالحة للاستمداد منها،

ويجعل إعادة النظر فيما تناولته من وقائع وتفسيرات، أمراً بالغ الأهمية".

أما العيب الرئيس والمشترك بين تلك الكتابات كما يقول، فهو "التركيز على التاريخ السياسي للمسلمين على حساب بقية مجالات الحياة الإسلامية: العقَدية والفكرية، والحضارية، والعلمية، والاجتماعية.. إلخ، ما يعطي صورة مشوهة ممسوخة! وذلك أن تقسيم التاريخ إلى مراحل سياسية، والحديث عن كل مرحلة، كأن هناك حدوداً فاصلة في مجرى التاريخ، منهج يقطع التواصل التاريخي بين أجيال هذه الأمة، كأنما لم تكن أمة واحدة متصلة، وكأنما لم تكن بالذات هي (الأمة الإسلامية)". إلى نهاية ما ذكره من المبررات.

ولم يكن قطب الوحيد المنتصر لهذه الرؤية، فأعداد كثيرة من الإسلاميين يرون التوجه نفسه، وإن اختلفوا في التبرير، فعند نقل الكاتب السعودي عبد الله بن ناصر الحبيب حديث قطب المشار إليه ليسند به مطالبته بإعادة كتابة التاريخ الاسلامي، أيده هو الآخر، الكاتب المصري الدكتور خالد كبير علال، إلا أن هذا الأخير اعتبر المبررات التي عدها الحبيب نقلاً عن قطب منطلقاً لحجته، ثانوية.

إذ إن علالاً يعتقد أن المسوغات لإعادة كتابة التاريخ أكبر من ذلك، ويقول في "مجلة عالم السنة": إن هناك ثلاثة أسباب رئيسة تدعونا إلى إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي؛ أولها أن قسما كبيراً

ومهماً من تاريخنا قد تلاعبت به الأهواء والعصبيات، والتحزبات السياسية والمذهبية، نجد آثارها جلية في روايات الطبري المتناقضة، وفي ما دوّنه اليعقوبي في تاريخه، والمسعودي في مروجه، والمؤلف المجهول في كتابه: الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، وغيرهم من المؤرخين. فوضعية كهذه لا يمكن قبولها، ولا يصح السكوت عنها، وثانيها، أن كثيراً من أعيان الإخباريين والرواة، الذين رووا تاريخنا الإسلامي، في القرنين الأول والثاني الهجريين وما بعدهما، هم من أهل الأهواء والبدع، الذين يتعمدون الكذب ويتخذونه دينا، أمثال: محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، ونصر بن مزاحم، وأبومخنف لوط بن يحيى، ومحمد بن عمر الواقدي، وغيرهم من الرواة الكذابين المؤسسين لمدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي وتدوينه".

ويسائل عما إن كان معقولاً "أن نقبل تاريخا كتبه هؤلاء ومن على شاكلتهم، دون أن ننقده ونمحصه"؟!

وينتهي إلى السبب الثالث، الذي رآه بسبب كون "تاريخنا الإسلامي، لم يدوّن وفق منهج علمي نقدي شامل، كما دُوّن الحديث النبوي، فإن علماءنا قد جدوا واجتهدوا، في جمع السنة النبوية وتحقيقها وفق منهج شامل صارم دقيق، لكنهم عندما كتبوا التاريخ تركوا ذلك المنهج جانباً، ودوّنوا الحوادث كما وصلتهم، فغلب عليهم الجمع والحشو، دون تمييز بين صحيح الأخبار وسقيمها في غالب الأحيان؛ لذا علينا نحن اليوم أن نتولى إعادة كتابته وفق منهج علمي صارم يجمع بين نقد الإسناد والمتن معاً".

أما العروبيون فآمنوا بضرورة "إعادة كتابة التاريخ العربي الحضاري والسياسي والروحي والديني... بحجة أن "الفصل القسري الذي جرى بين التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ ما قبل الإسلامي قد ورط العرب ـ كما يقولون ـ في عملية فصل جغرافي قطري بين تواريخ البلدان العربية المتنوعة؛ فبالنسبة لكل مواطن عربي هنالك تاريخ واحد فقط مشترك بين العرب جميعهم، هو التاريخ العربي الإسلامي، أما قبل ذلك فلكل صقع تاريخه الخاص، فبالنسبة للشامي فإن حضارة الفينقيين والآراميين تبدو أجنبية، وحضارة القرطاجيين تبدو كذلك أجنبية لغير المغاربي".

ويضيف الموقع أن "العراقي ـ مثلا ـ ممكن أن يشعر بالانتماء المشترك مع المغاربي عندما يتحدث عن الفترة العربية الإسلامية، لكن ما إن يتم الحديث عن الحضارة القرطاجية والحضارة البابلية حتى يبدأ الافتراق بين العراقي والمغاربي والانحدار نحو الماضي".

ويتساءل بعد ذلك "كيف يمكن الجمع بين هذه التواريخ الوطنية المتنوعة؟ كيف يمكننا من ناحية احترام التاريخ الوطني المتميز والخاص بكل بلد عربي، ووضع كل واحد من هذه التواريخ الخاصة في سياق متكامل ومنسجم رغم التمايزات حتى التناقضات".

ليخلص إلى أن "المهمة التي تواجه العرب تتمثل بالعمل على كتابة التاريخ العربي بطريقة تعيد اكتشاف جميع العلاقات

التكاملية بين التواريخ الوطنية المختلفة، وهذا يبدأ أولا بإعادة الترابط بين التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ ما قبل إسلامي، بهدف رد الاعتبار لماضينا وتراثنا الأقدم والأطول زمناً، الممتدة جذوره في أعماق وعي الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم التي اندمجت في الحضارة العربية الإسلامية، فالأوربي على سبيل المثال مهما ركز على تاريخه الوطني (القطري) فإنه يشعر بالانتماء المشترك لتواريخ جميع الشعوب الأوربية: الإغريقي الروماني الجرماني السلافي، وهذا بالضبط الذي تحتاجه رؤيتنا إلى تاريخنا"!

وبذات المستوى تحدث الباحث الذي لم يفصح موقع (العراق للجميع) عن اسمه، عن توحيد الميراث الديني واللغوي بصورة غير مخلة بالإسلام والديانة، ويعتقد أن "القرآن الكريم نفسه خلا تماماً من هذا الفصل التعسفي والتنكر للماضي، فالقرآن رغم رؤيته الإلهية للتاريخ إلا أنه في حقيقته العميقة لا يتنافى مع الرؤية العلمية العلمانية لتاريخ المنطقة العربية"!

من الناحية الأخرى أجاب الدكتور عز الدين عمر موسى على سؤال (الحياة) حول ما إذا كانت مطالب إعادة كتابة التاريخ الاسلامي منطقية أو تمثل نوعاً من الترف العصري.. فقال: "تلك المطالب ليست نوعاً من الترف وإنما هي نوع من السفه، كونها تعد خوضاً في شيء لا معنى له. لن تستطيع أن تعيد كتابة التاريخ وإنما تستطيع أن تقرأه، والقراءة تعتمد على القارئ، بل حتى إعادة القراءة لا يحتاج إليها التاريخ، فهو كالبحر بحسب الغارف منه.

هناك من يريد ماء كثيراً وآخر يريد ماء قليلاً.. ومن بين الناس من يشتهي ماء متكدراً ومنهم من لا يريده إلا زلالاً نقياً".

وزاد " أنا لست من الداعين إلى تنقية التاريخ من بعض الروايات فأي رواية تمثل وجهة نظر أناس آخرين يبحثون عنها". واعتبر موسى " الحياد " أمراً مستحيلاً في التاريخ "فكل مؤرخ يلون الروايات بحبره"، مفنداً أن يكون ابن خلدون استثناء من تلك القاعدة .. ورأى أنه - أي ابن خلدون - "عندما كتب المقدمة اقترب من الحياد، ولكنه ما إن شرع في كتابة التاريخ حتى اقتفى إثر أسلافه من كتبة التاريخ الماضين، فكل يروي الوقائع من وجهة نظره متأثراً بآرائه ومواقفه وعقائده".